المحاضرة الثامنة: الأدب الفرنسي

1_ الأدب الفرنسي القديم: إذا ما أردنا أن نوجز في بضع فقرات حالة الأدب الفرنسي القديم (أدب القرون الوسطى ق5م/ ق15م) فذلك أمرٌ يسيرٌ نسبيًا؛ لأنّ مؤرّخي الأدب الفرنسي أنفسهم لم يخصّصوا له إلّا حيّزا ضيّقًا في مختلف تواريخهم الأدبية.

وممّا لا شكّ فيه أنّ اللّغة اللّاتينية_باعتبارها لغة الكنيسة الرّسمية_ وما كانت تتمتّع به من هيمنة ونفوذ على حساب سائر اللّهجات الأخرى (**oil** شمال فرنسا، و**oc** في جنوبها) هي التي حالت دون نشوء أدبٍ قوميٍّ بالمعنى الدّقيق؛ ولهذا فإنّ المحاولات الشّعرية الأولى للأدب الفرنسي في الفترة الممتدّة ما بين القرن 9م و11م لم تكن سوى محاكاة أو تابعة لتقاليد الأدب اللّاتيني، كما أنّها لا تكاد تخرج عن إطار الأدب الدّيني ، سواء في **مضمونها** الذي يعالج حياة القِدِّسِينَ ومآثرهم، أم في **شكلها** الذّي يلتزم أسلوب العفّة والتّقوى، أم في **كيفية** ترتيلها على مسامع المصلّين أثناء تأدية الشّعائر الدّينية.

بعد البداية المحتشمة، يدخل الأدب الفرنسي في مرحلة التطوّر التّدريجي؛ فتظهر:

_ **الملاحم** في القرن 11م: وهي عبارة عن أشعار حائية تُرتَّل على الجمهور في مناسبات معيّنة، مختلفة من حيث الطّول (2000 إلى 20000 بيتا شعريا)، وكان البعض منها من إبداع المنشدين والمروّجين لها عن طريق المشافهة/ الرواية، والبعض الآخر بقي أصحابه مجهولين حتّى الآن، وأشهرها على الإطلاق ملحمة **رولان** المعروفة باسم **chanson de Roland** في حوالي 8880 بيتا، وكلّ الأغاني الأخرى المسمّاة **بأغاني المفخرة chanson de geste** مضمونها يتجاوب مع المجتمع الإقطاعي.

_ **الشّعر الغنائي:** الذي ظهر في الفترة نفسها، واحتلّ مكانة مرموقة في مجال الإنتاج الأدبي، وهو إنتاجٌ عاطفيٌ يجمع في ثناياه بين دواعي الغناء شكلا، وضرورة التّعبير عن الحب الرّقيق مضمونا؛ وذلك بسبب ظهور العنصر النّسوي في أوساط الأرستقراطية الفرنسية، ومن أشهر من نظم في هذا المجال الشّاعر **غيوم التّاسع (1071/ 1127م)** الذي يعتبر أوّل الشّعراء الجوّالين المشهورين باسم التروبادور في شمال فرنسا والتروفير في جنوبها.

_ **القصّة:** بالإضافة إلى القصص المقتبسة عن الميثولوجيا الإغريقية واللاتينية (قصّة مغامرات الإسكندر، وقصة طروادة)، فإنّ موضوع الحبّ العذري ظهر في القرن 12م نتيجة لتطوّر المجتمع الأرستقراطي الذي أتاح للفنّ القصصي أن يرى النّور في شمال فرنسا، فكان لزاما على القصّاص أن يعبّروا عن طموحات الطّبقة الأرستقراطية

المهذّبة، وهذا ما نجده في عند **ماري دي فرانس** في قصصها المعروفة بـ**القصائد الغنائية** (قبل 1170م)، وعند **برول** في قصّة **تريستان وإيزوت** (1180)، وعند **توماس دونجلتير** في قصّته **جنون تريستان** (1190م)، ويعدّ **كريتيان دي تروا** رائد هذا النّوع من القصص الشّعري وملهم تابعيه ومقلّديه كـ: **غوتييه، دارّاس، جان رونار**...ومن أشهر أعماله مجموعة مكوّنة من خمس قصص: **كليغس، الفارس والعجلة، إيفان أو الفارس والأسد، برسيفال أو قصّة غرآل**...

_ **الأدب الفكاهي أو الفابليو**: وذلك من أجل تربية وتهذيب القرّاء، وللتّرفيه عنهم ولإفادتهم في الوقت ذاته، وقد ظهرت حوالي 150 قصّة كتبها ما بين 1170م و1340م شعراء مجهولون أو أدباء مشهورون مثل **جان بوديل** و**روتبوف**...

_ **المسرح**: كان المسرح الدّيني وليد الطّقوس الدّينية، وسرعان ما تحوّل من مجرّد تعاليق قصيرة للقدّاس، إلى مسرحيات حقيقية خلال القرن 13م، ومثال ذلك: مسرحية **لعبة آدم** لمؤلّف مجهول، و**لعبة سان نيكولا** لـ**جان بوديل**... أمّا المسرح الدّنيوي فلم يصلنا منه إلّا القليل، وفيه تألّق اسم **أدم دي لاهّال** بمسرحيتين **لعبة الخميلة** (1276م) **ولعبة روبان وماريون** (1285م).

سوف تعرف هذه الأجناس الأدبية نفَسًا ودفعا جديدين في الفترة ما بين القرنين 13م و15م:

_ **القصّة**: ذات الطّابع السّير ذاتي مع **غيوم دي لورّنس** في قصّة **الوردة**.

_**الشّعر العاطفي**:على أيدي شعراء فطاحل مثل: **كريستسن دي بيزان، فرانسوا فيلّون**...

_ **المسرح**: بنوعيه الدّيني والدّنيوي (الفكاهي) مع **أرنودل غريبان، جان ميشال**...

_ **الأدب التّاريخي**: على يد كلّ من: **جُوفَرْوَا دي فِلَّهاردين، روبير دي كلاري، جان لوبيل، جان فرْواسَّار**...

وقد كان الأسلوب الشّعري هو الغالب، ولم تتضّح معالم النّثر الفنّيّ إلّا في القرن 15م، وهو القرن الذي ذاعت فيه الأقاصيص مثل: **الخمس عشرة لذّة من الزّواج** لكاتب مجهول، وقد اعتبرها مؤرّخو الأدب الفرنسي مرحلةً وُسطى بين نمط الفابليو القديم والفن القصصي الذي ظهر في عصر الانبعاث.

2_ الانبعاث في القرن 16م: في منتصف القرن 16م بدأ الحديث عن بعث الآداب الجميلة من جديد، خاصّة بعد التطوّرات الحاصلة في جميع المجالات، وخاصّة الاهتمام بالجانب الإنساني، ومن خصائص الشّعر في هذه الفترة نجد ظهور:

أ_ البلاغيون: وهي مدرسة شعرية جديدة، بالغ أصحابها أيّما مبالغة في استعمال المحسّنات البديعية أو البلاغة الثّانية الخاصّة بالشّعر، وقد تكسَّب أصحابها بالشّعر نظرًا للظّروف الصّعبة آنذاك، كما نظروا إلى مهنتهم نظرة تبجيل واحترام، فحرصوا على تأدية المهمّة السّامية على أحسن وجهٍ، ويرجع لهم الفضل في اختراع القوافي إبداع التّوفيقات الإيقاعية الطنّانة، ومهارة في التّلاعب بالألفاظ، واستعمال القوافي ذات الغنى اللّامحدود.

ب_ جماعة الثّريا: في الفترة الممتدّة ما بين 1546م و1550م ظهر مجموعة من الشّباب التوّاق إلى اكتشاف المجال الفنّي بالرّجوع مباشرة إلى أمّهات الكتب الإغريقية، وبعض المؤلّفات اللّاتينية والإيطالية بغية الاقتداء بها؛ وذلك من خلال تكوين:

ب_1_ اللّقاءات: حيث يلتقي **بيار دي رونيار** ب**جاك بلتييه** الذي يعدّ رائد الثريّا وملهم أصحابها، والسبّاق إلى ترجمة بعض المؤلّفات القديمة كفنّ الشّعر لـ**هوراس**.

ب_2_ الفرقة: في سنة 1547م يكوّن **رونسار** و**دي بيليه** و**بييف** زمرة أطلق عليها اسم **فرقة** سرعان ما تّسعت وضمّت إليها أعضاء جددا، ووظّفت برنامجا خاصّا بها، تمثّل في:

_وجوب الكتابة باللّغة الفرنسية وليس اللّاتينية، وكذلك جاءت فكرة الدّفاع لإبراز أنّ الفرنسية ليست لغة بربرية كما يعتقد دعاة اللّاتينية.

_وجوب إشهار هذه اللّغة (العامّية) وجعلها نظيرة اللّاتينية، ولن يتمّ ذلك إلّا بتقليد القدامى شكلا ومضمونا لغة وعروضا.

ب_3_ الثريّا: في سنة 1556م استُعمِلت للمرّة الأولى كلمة **بلياد** المكوّنة من سبعة أعضاء وهم: **دي بيليه، رونسار، جودل، بلتييه، بييف، بونتيس، بلّو**. ويرجع لهم الفضل في التّعريف بالقدامى، وقد قلّدوهم تقليدا صائبا، ولهم الفضل أيضا في كونهم جدّدوا في الشّعر الفرنسي من حيث المضمون والشّكل (إدخال السّونيتة).

لم يحترم أتباع البلاغيين والثريّا مبادئهم النّظرية تمام الاحترام، وفتحوا بذلك ثغرة ما لبثت في القرن 17م أن استغلّت لتوسيع الكلاسيكية، وفرض قواعدها وللقضاء على الحرّية في الفنّ.

3_الأدب الفرنسي الحديث:أسهم عدد من الروائيين والشعراء الفرنسيين في تأليف مسرحيات فرنسية في أواسط القرن 20م مثل **سارتر وكاميه**، و**جان اينوي**، و**جان جيرودو**، وجان **كوكتو**...و كان **جان إينوي** يعمل على الكشف عن الخداع والحقيقة، والفرد ضد المجتمع وطبيعة الواجب، ويستخدم الموضوعات الأسطورية والتاريخية .

كما ظهر مسرح **اللامعقول** وهي حركة أدبية تهدف إلى إظهار ما يعتقدونه طبيعة الحياة التي بالضرورة لا معنى لها، وكان زعماؤها **صمويل بيكيت**، و**أوجوين يونيسكو**...

إضافة إلى ظهور **الرواية الجديدة** على يد كلّ من **آلان روب غرييه**، و**ميشيل بوتور** ، و**ناتالي ساروت**، و**كلود سيمون** وقد ابتعدوا عن الأفكار التّقليدية للرواية مثل سرد القصة الواقعي والعقد، بدلا من ذلك فقد كانت قصصهم تركّز على وصف الأحداث والأشياء كما رأتها شخوص القصّة.

أمّا في السبعينيات فقد ظهرت **حركة نسوية** في الأدب الفرنسي ووجه عدد من النقاد معظمهم من النساء أنظارهن إلى كاتبات الأجيال الماضية، وأخذن في تحليل شخصية المرأة كما ظهرت في القصص مع توضيح اهتمامات النّساء في الأدب الحديث، وكانت **مارجريت دوراس** و**هيلين سيكسوس** من أبرز وأهم الأديبات الفرنسيات في نهاية القرن 20م.

المصادر والمراجع:

- **عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1،1989 .**
- **فؤاد الكعبازي، قراءات في الشعر العالمي، الدار العربية للكتاب، (دط)، 1984.**
- **نبيل راغب، معالم الأدب العالمي المعاصر، دار مصر للطباعة، مكتبة الإسكندرية، (دط)،(دت).**